

المحاضرة 1:

ماهية علم الاجتماع أو ما طبيعة عمل عالم الاجتماع

إذا ما حاولنا تقديم تعريف مبسط لعلم الاجتماع، فبالإمكان القول أنه "علم دراسة المجتمع". إنه تعريف على بساطته يحتاج إلى تعريف له. مشكلة هذا التعريف أنه يحتاج إلى تعريف أخرى. نفس الأمر يمكن أن يقال على تعريف أخرى لعلم الاجتماع، مثل: علم الاجتماع يدرس الظواهر الاجتماعية، السلوكيات الاجتماعية.... الخ.

علم الاجتماع وبقية العلوم الاجتماعية (الاقتصاد، علم السياسة، الأنثروبولوجيا، علم النفس...) يشتركون في موضوع واحد للدراسة والبحث، والذي هو المجتمع والإنسان. لكن ما يميز علم الاجتماع عن بقية العلوم الاجتماعية هو مقارنته وطريقة تناوله لموضوع الدراسة هذا. إنه يأخذ من كل العلوم الاجتماعية قصد تكوين تصور ورؤية شاملين حول ما يدرس.

إن الباحث في علم الاقتصاد يدرس الاقتصاد (جزء) في المجتمع (الكل)، والباحث في علم السياسة يدرس السياسة (الجزء) في المجتمع (الكل)، أما الأنثروبولوجي فيدرس الثقافة (الجزء) في المجتمع (الكل)، وعلى نفس المنوال يقوم عالم النفس، عالم التربية والمؤرخ بدراسة أجزاء معينة (شخصية الإنسان، التربية والمدرسة، الأحداث والوقائع الماضية) من الكل الذي هو المجتمع والحياة الاجتماعية. الباحث في علم الاجتماع وعلى خلاف البقية، موضوع دراسته هو الكل أي المجتمع. إذن فموضوع الدراسة لديه يشمل: الاقتصادي والسياسي والثقافي والنفسي والتربوي والتاريخي... الخ، أي يشمل كل ما هو اجتماعي.

علم الاجتماع كمشروع معرفي هو مشروع مذهل وشديد التعقيد، كون أن موضوعه الأساسي هو سلوكياتنا وأفعالنا ككائنات اجتماعية. ومن هنا فإن نطاق القابل للدراسة فيه يتسم بالاتساع الكبير والتنوع، إذ يبدأ من تفاصيل حياتنا اليومية (الأحداث واللقاءات العابرة بين الناس) إلى أن يصل لدراسة الآليات الاجتماعية العالمية (العولمة وحوار الثقافات).

إن معطيات حياتنا اليومية في المجتمع تتأثر متأثراً كبيراً بوقائع اقتصادية سياسية ثقافية نفسية وتاريخية. لذا فإن فهم هذه المعطيات الحياتية الخاصة بكل من الأفراد والجماعات، لا بد وأن يمر عبر فهم وتحليل للسيئات الكبرى (الاجتماعية، الاقتصادية، التاريخية، السياسية، الثقافية...) التي تجري داخل المجتمع. هذا هو جوهر النظرة السوسولوجية.

التفكير بطريقة سوسولوجية، هو تبني لمقاربة تتسم بالاتساع والشمولية، نظرة تتضمن كافة أبعاد الواقع الاجتماعي. على عالم الاجتماع أن يكون قادراً على التحرر من الظروف الشخصية و أن يضع الأمور في سياق أوسع. إنه ارتقاء من نظرة شخصية تنظر في نفس الاتجاه ومن زاوية واحدة، إلى نظرة أوسع تشمل كل اتجاهات وزوايا الظاهرة المدروسة. إن التفكير السوسولوجي في جانب كبير منه يعتمد على أعمال "الخيال السوسولوجي".

الخيال السوسولوجي يتطلب في المقام الأول أن ننأى بأنفسنا عن المجربات الروتينية، لیتسنى لنا إلقاء نظرة جديدة عليها. أنظر على سبيل المثال إلى تناولنا فنجانا من القهوة، ما الذي يمكننا قوله عن هذا الموقف من ناحية علم الاجتماع؟ عن هذا الموقف الذي لا يبدو في الظاهر مثيرا للاهتمام بوسعنا قول الكثير في واقع الأمر.

أولا، يمكننا أن نشير إلى أن القهوة ليست مجرد شراب منعش أو منبه، بل إن لها قيمة رمزية باعتبارها جزءا من أنشطتنا الاجتماعية اليومية، والطقوس التي تصاحب احتساء القهوة أهم من استهلاكنا لها. فنجان القهوة هو علامة فارقة في الروتين اليومي. احتساء القهوة كما تناول الطعام هو مناسبة للتفاعل الاجتماعي وممارسة الطقوس.

ثانيا، القهوة من العقاقير. فهي تحتوي على الكافيين الذي يحفز الدماغ، لذا نجد أن الكثير من الناس يحتسون القهوة سعيا وراء جرعة يومية من هذا المنبه (الكافيين)، لذا فتعاطي القهوة يؤدي إلى تعود الجسم عليها، بتعبير آخر يؤدي إلى الإدمان عليها. محتسي القهوة هو إذن مدمن. لكن رغم هذا أكثر الناس لا يعتبرون من يتعاطى القهوة مدمنا، في حين أنهم يعتبرون الذي يتعاطى المخدرات مدمنا. إنها مفارقة ربما سطحية لكن عالم الاجتماع يهتم بدراستها ويعرف أسبابها: هل الإدمان مفهوم طبي أم اجتماعي؟ ما هي المعايير التي تجعل من عقار ما مخدرا؟ هل هي معايير واعتبارات طبية أو اجتماعية، أم الاثنين معا؟ ... إلخ مثل هذه الأسئلة وأهميتها يزيد إذا ما عرفنا مثلا أن بعض المجتمعات تتساهل وتتسامح مع استهلاك الكوكايين أو الماريخوانا: بعض الطوائف الدينية في الهند، جامايكا.

ثالثا، الشخص الذي يتناول القهوة يدخل في شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي تمتد إلى أنحاء أخرى من العالم. القهوة هي أحد المنتجات التي تربط بين الناس في أغني البلدان وأفقرها، فهي تستهلك بكميات هائلة في المجتمعات الغنية ولكنها تزرع وتنتج في المجتمعات الفقيرة (إفريقيا وأمريكا اللاتينية). القهوة تحتل المرتبة الثانية بعد النفط باعتبارها السلعة الأكثر تبادلا في التجارة العالمية.

رابعا، فعل شراء القهوة واحتساءها يدخل ضمن منظومة ثقافية للاستهلاك وطريقة في العيش. تناول القهوة منتشر بين سكان الجزء الغربي من الكرة الأرضية، في حين أن سكان الجزء الشرقي يفضلون عليها الشاي. إن القرارات التي يتخذها المستهلكون حول نوع القهوة ومصادر إنتاجها أصبح يمثل خيارات لأسلوب الحياة.

خامسا، القهوة واحدة من المنتجات التي توجد قلب السجلات الراهنة حول العولمة، التجارة الدولية، حقوق الإنسان (عمالة الأطفال) وحماية البيئة. مع انتشار القهوة وتزايد شعبيتها، أصبحت منتوجا "مسيّسا".

إن هذا المثال حول "تناول فنجان القهوة" وعلى بساطته، يبين لنا أن وراء كل سلوك بسيط أو معقد يقوم به الفرد أو الجماعة، هناك دائما اعتبارات سوسولوجية (اجتماعية اقتصادية ثقافية سياسية فكرية...) في الخلفية. عدم رؤيتنا لها لا يعني أنها غير موجودة أو غير مؤثرة. الخيال السوسولوجي يتيح لنا إدراك أن الكثير من الأحداث والظواهر والسلوكيات الاجتماعية إنما تعكس قضايا أوسع، أهم أعقد بكثير.

البطالة مثلا لها أبعاد عدة. بعد اقتصادي مرتبط بقانون العرض والطلب في سوق العمل. بعد سياسي يتمثل في سياسات التشغيل (خلق مناصب شغل) لدى الحكومة والأحزاب السياسية. بعد اجتماعي خاص بآليات التضامن والتعاون الاجتماعيين للحد من الآثار السلبية للبطالة. بعد نفسي يتعلق بالآثار النفسية للبطالة على الشخص الذي يعاني منها. بعد ثقافي حول ما يمثله العمل في ثقافة المجتمع... الخ.

الجدول التالي يحوي قائمة -غير مكتملة- لبعض فروع علم الاجتماع ومجالات الدراسة فيه. النظرة الأولى على الجدول تبين التنوع الواضح في الدراسات السوسولوجية. يرحه ذلك إلى التنوع المميز للحياة الاجتماعية، فهي تشتمل على الاقتصادي، السياسي، الثقافي، الديني، التربوي... إلخ.

حول العمل	
علم اجتماع العلاقات الصناعية	علم اجتماع المهن
علم اجتماع العمل	علم اجتماع الجمعيات والنقابات
علم اجتماع المنظمات	علم اجتماع المؤسسة
علم اجتماع البطالة	علم الاجتماع الاقتصادي
حول العلاقة فرد/مجتمع	
علم اجتماع الفرد	علم اجتماع الطبقات الاجتماعية
علم اجتماع التغيير الاجتماعي	علم اجتماع العائلة
علم اجتماع الجندر (النوع = النساء/الرجال)	علم اجتماع الهوية
علم النفس الاجتماعي	
حول طرق العيش	
علم الاجتماع الحضري	علم الاجتماع الريفي
علم اجتماع الفقر والتهمةيش	علم اجتماع الاستهلاك
علم اجتماع الثقافة	علم اجتماع الفن
علم اجتماع الرياضة	علم اجتماع الإعلام والاتصال
علم اجتماع الحياة اليومية	علم اجتماع التربية والمدرسة
علم اجتماع العلوم	
حول الأفكار والمعتقدات	
علم اجتماع الديانات	علم اجتماع القيم
علم اجتماع المعرفة	علم اجتماع الفرق الدينية
حول المواطنة	
علم اجتماع السياسة	علم اجتماع الانتخابات

لماذا ندرس علم الاجتماع؟

لأن علم الاجتماع يهتم بدراسة ظواهر نابعة من الواقع الاجتماعي المعاش (الانحراف، التهميش، العمل، الفساد، العائلة، العنف، الاستهلاك...)، يتشكل لدينا انطباع بقرب هذا العلم ومواضيعه من حياتنا. إلا أنه يجب التأكيد على أن الفهم الموضوعي والدقيق لهذا الواقع الاجتماعي لا يمكن أن يتم دون معرفة سابقة بماهية علم الاجتماع من ناحية موضوعه ومنهجه ورواده.

إن علم الاجتماع بطبيعته مصدر للتنوير يعود علينا بثلاث فوائد على الأقل:

1. زيادة معارفنا بالعالم الذي نعيش فيه، عبر صياغة أحكام ومواقف موضوعية أكثر. فمجرد الانتماء إلى مجتمع ما لا يكفي لمعرفة. علم الاجتماع يتجاوز للمسلمات واختراقه للظاهر من الواقع الاجتماعي وبكشفه عن المسكوت عنه وخرقه للطابوهات، من شأنه أن يساهم في تشكيل رؤية نقدية لدينا حول العالم والمجتمع اللذين نعيش فيهما.
2. التنوير الذاتي، بزيادة معرفتنا بذواتنا وتعميق فهمنا لأنفسنا. فكلما زادت معرفتنا بالبواعث الكامنة وراء أفعالنا وخياراتنا وتعمق فهمنا لأساليب عمل المجتمع الذي نعيش فيه، تعززت مقدرتنا على التحكم والتأثير في مستقبلنا.
3. تنوير من في أيديهم السلطة (السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الدينية، الثقافية...) ومساعدتهم على طرح الأسئلة المناسبة واختيار المقاربات الناجعة في تسييرهم لشؤون المجتمع. فالسياسات والخطط التي لا تنطلق من وعي مباشر بمسارات حياة الناس الذين تستهدفهم لا تتوفر على أي فرصة للنجاح.